المقاصد العلمية والعملية

في سورة المدثر

محمد بن أحمد رفيق

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المقاصد العلمية والعملية في سورة المدثر

تأليف
محمد بن أحمد رفيق

﴿سورة المدثر مكية وءاياتها خمس وخمسون﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

التعريف بالسورة

هي السورة الرابعة بحسب ترتيب النزول، والسورة الرابعة والسبعون بحسب ترتيب المصحف، نزلت بمكة بعد «سورة المزمل»، وقبل «سورة الفاتحة»، وتسمى في كتب التفسير «سورة المدثر» وكذلك سميت في المصاحف. وآياتها ست وخمسون في عد العراقي والبزي، وخمس في عد المكي.

والمراد بالمدثر النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وُصف صلى الله عليه وسلم بالحالة التي نودي بها، كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها. ونظيره ما تقدم في تسمية «سورة المزمل»، وهي مكية باتفاق العلماء.

وينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة «المزمل»، وكيفما كان الحال فهي قطعا من أوائل ما نزل. وليس بينها وبين «المزمل» زمنا طويلا على القول الراجح.

فقد قال صفي الرحمن المباركفوري: «أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح».[1]

قال الحافظ في الفتح: المجيء في الغار كان أولا في شهر رمضان وحينئذ نبئ وأنزل عليه: ﴿اقرأ باسم ربك..﴾ ثم كان المجيء الثاني في شهر ربيع الأول بالإنذار، وأنزلت عليه: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾.[2]فهذا يدل على أن السورة نزلت والدعوة لا زالت في السر، وفي بداية الأمر، لأن كتمان الدعوة استمر ثلاث سنوات، كما قال ابن القيم رحمه الله: «وأقام صلى الله عليه وسلم بعد ذلك

---

[1] الرحيق المختوم (ص 79، 80).

[2] فتح الباري لابن حجر (8/ 718)

ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيا، ثم نزل عليه ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ [الحجر: 94] [الحجر: 94] . فأعلن صلى الله عليه وسلم بالدعوة وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن الله لهم بالهجرتين».[3]

وقد مر معنا في سورة «العلق» حديث عائشة وجابر رضي الله عنهما في ذكر أول ما نزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بينا هناك القول الراجح، ونزيده هنا بسطا بمناسبة كلامنا عن سورة المدثر.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «والصحيح قول عائشة[4] لوجوه:

أحدها: أن قوله: ما أنا بقارئ، صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئا.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولا، ثم بالإنذار بما قرأه ثانيا.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: أول ما أنزل من القرآن ﴿ياأيها المدثر﴾ [المدثر: 1] قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره صلى الله عليه وسلم عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولا قبل نزول ﴿ياأيها المدثر﴾ [المدثر: 1] فإنه قال: فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي فقلت: زملوني دثروني، فأنزل الله ﴿ياأيها المدثر﴾ [المدثر: 1] وقد أخبر أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه ﴿اقرأ

---

[3] زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 84)

[4] يريد قولها إن أول ما نزل صدر سورة العلق: ﴿اقرأ﴾ الآيات الخمس الأولى. وليس ما ذهب إليه جابر، حيث زعم أن أول ما نزل: ﴿يا أيها المدثر﴾.

باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: 1] فدل حديث جابر على تأخر نزول ﴿ياأيها المدثر﴾ [المدثر: 1] والحجة في روايته لا في رأيه، والله أعلم».[5]

مناسبتها لما قبلها

وجه المناسبة بين سورة المدثر، وسورة المزمل

جاء ترتيب هذه السورة في المصحف موافقا لترتيبها في النزول، وذهب البعض إلى أنها نزلت بعد سورة «العلق»، وأنها السورة الثانية! لكن الذي ترجَّح لديَّ أنها الرابعة، وقد بأوضحت سبب هذا الإشكال في سورة «المزمل»، وكشفته بما فتح الله ويسر، فراجعه هناك وجدّد به عهدا.

وأما المناسبة بين السورتين فظاهرة جلية، قال برهان الدين البقاعي رحمه الله: «لما ختمت «المزمل» بالبشارة لأرباب البصارة بعدما بدئت بالاجتهاد في الخدمة المهيىء للقيام بأعباء الدعوة، افتتحت هذه بمحط حكمة الرسالة وهي النذارة لأصحاب الخسارة، فقال معبراً بما فيه بشارة بالسعة في المال والرجال والصلاح وحسن الحال في الحال والمآل، ومعرفاً بأن المخاطب في غاية اليقظة بالقلب وإن ستر القالب».[6]

وقال الإمام أبو جعفر الغرناطي رحمه الله: «ملاءمتها لسورة المزمل واضحة، واستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدئت به كل واحدة منهما من جليل خطابه صلى الله عليه وسلم وعظيم تكريمه ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾. ﴿**يَا أَيُّهَا**

---

[5] زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 83 .84)

[6] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (21/ 39)

الْمُدَّثِّرُ﴾ والأمر فيهما بما يخصه ﴿**قم الليل إلا قليلا نصفه** .. ﴾ الآي. وفي الأخرى: ﴿**قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)**﴾

وأتبِعَتْ في الأولى بقوله: ﴿**واصبر على ما يقولون**﴾ وفي الثانية بقوله: ﴿**ولربك فاصبر**﴾ وكل ذلك قصد واحد.

وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار ووعيدهم ﴿**وذرني والمكذبين** ...﴾ الآيات. وكذلك في الأخرى ﴿**ذرني ومن خلقت وحيدا**....﴾ الآية. فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد». (انتهى).[7]

وقال الألوسي رحمه الله: «وهي متواخية مع السورة قبلها في الافتتاح بنداء النبيّ صلّى الله عليه وسلم .. وبدئت تلك بالأمر بقيام الليل، وهو عبادة خاصة. وهذه بالأمر بالإنذار، وفيه من تكميل الغير ما فيه».[8]

قلت: المناسبة ظاهرة من مطلع السورتين، وكذلك من النظر إلى مقاصدهما ومحورهما. حيث نجد في النداء الوصف الكامل للحالة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وفيهما من التلطف والارتفاق ما لا يخفى: ﴿**يا أيها المزمل**﴾. ﴿**يا أيها المدثر**﴾. فالمتزمّل هو نفسه المتدثر ـ صلى الله عليه وسلم. وإن كان بين الحالتين اختلاف في أصل الاشتقاق، إذ التزمل مشتق من معنى التلفف، والتدثر مشتق من معنى اتخاذ الدثار للتدفؤ. ويبين هذا ما ورد في الصحيحين عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ـ كان يحدث ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحدث عن فترة الوحي ـ قال في حديثه ـ : «فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي

---

[7] البرهان فى تناسب سور القرآن (ص: 350 ـ 351)

[8] روح المعاني (15/ 128)

بين السماء والأرض»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فجئثت منه فرقا، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجُر**﴾ [المدثر: 2] - وهي الأوثان - «قال: «ثم تتابع الوحي»[9].

فسورة «المزمل» دعا فيها الحق سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وسلم إلى التزود بقيام الليل، وترتيل القرآن، وكثرة الذكر، والتوكل عليه، والتبتل إليه. وفيها دعوة ـ كذلك ـ إلى كل من أراد أن يبلغ هذا الدين، أن يقتفي هذه التعاليم والأوامر ليتحمل تتكاليف الدعوة.

وسورة «المدثر» دعا فيها الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ـ ومَن عزم على اقتفاء أثره من الدعاة والعلماء ـ إلى إنذار العشيرة والأقارب وكل مَن أعرض أو تصدى للدعوة، كما ودعاه إلى التخلق بأخلاق عظيمة وجليلة ظاهرة للعيان.

وأيضا جاء في «المزمل»: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾ [المزمل: 10]. وقال هنا: ﴿**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾ [المدثر: 7]. وقال في تلك مهددا المعاندين: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا**﴾ [المزمل: 11]. وقال هنا: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا**﴾ [المدثر: 11 - 16]. ولما أجمل الحديث

[9] صحيح البخاري (1/ 7)، صحيح مسلم (1/ 143).

عن النار وأصحابها في «المزمل»: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: 12، 13]. بسط الحديث عنها هنا فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)﴾ [المدثر: 26 - 30]. ولما قال هناك: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: 19]. قال هنا عن التذكرة . التي هي القرآن . : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 49 - 56]. ويُذكرنا قوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: 39 - 46]. بقوله تعالى في «القلم»: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: 35]، لاحظ وصف المجرمين: إنهم لا يصلون، ولا يطعمون الطعام، ويخوضون في اللهو واللغو، ويكذبون بيوم الدين.

محور السورة ومعالمها العامة

قال الفيروز آبادي رحمه الله: «مقصود السورة: أمر النبى صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق إلى الإيمان، وتقرير صعوبة القيامة على الكفار وأهل العصيان، وتهديد الوليد بن مغيرة بنقض القرآن، وبيان عدد زبانية النيران، وأن كل أحد رهن بالإساءة والإحسان، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان، وذكر وعد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران، فى قوله: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ .

والمنسوخ فيها آية واحدة: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾، نسختها آية السيف».[10]

وقال ابن عاشور رحمه الله عن هذه السورة: جاء فيها من الأغراض تكريم النبي صلى الله عليه وسلم والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة .. وإعلان وحدانية الله بالإلهية .. والأمر بالتطهر الحسي والمعنوي .. ونبذ الأصنام .. والإكثار من الصدقات .. والأمر بالصبر .. وإنذار المشركين بهول البعث .. وتهديد من تصدى للطعن في القرآن وزعم أنه قول البشر، وكُفرُ الطاعن نعمة الله عليه، فأقدم على الطعن في آياته مع علمه بأنها حق .. ووصف أهوال جهنم .. والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها .. وتحدي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفظتها .. وتأييسهم من التخلص من العذاب .. وتمثيل ضلالهم في الدنيا .. ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء.[11]

النص القرآني

---

[10] بصائر ذوي التمييز (1/ 488)

[11] التحرير والتنوير (29/ 293)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥﴾ الآيات.

القراءات

﴿والرُّجز﴾: حفص، وأبو جعفر، زيعقوب.

﴿والرِّجز﴾: الباقون.

التفسير الإجمالي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾

قد مر بنا ذكر سبب نزول هذه الآيات الأوائل، فهي في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، لما رأى جبريل عليه السلام جالسا على كرسي، فرجع إلى بيته يرتجف من الخوف، فإذا بربه جل وعلا يأمره بأن يقوم للإنذار، فدعاه بالصفة التي كان عليها: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، كما دعاه من قبل: ﴿يا أيها المزمل﴾ وزنه متفعّل، ومعناه: يا أيها الذي تدثر في كساء . أو ثياب . قُمْ فَأَنْذِرْ الناس وعلى رأسهم أهلك. وربّك وحده عظّمه وكبّره في قلبك، وعلى لسانك، وفي صلاتك، ﴿وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: دم على تطهيرها كما كنت من قبل. ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، والطهارة من الذنوب والعيوب، وتطهير الأهل من الرذائل وكل قبيح. وكذلك داوم على البعد ومفارقة الأوثان، وما يسخط الله ويوجب عذابه، من المعاصي والفجور وكل قبيح. ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ لا تعط شيئا لتأخذ أكثر منه، أو لا تعط الناس عطاء وتستكثره، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيرا. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي لوجه ربك وطلب رضاه ولمراده فقط اصبر. ويحتمل أن يريد الصبر على المكاره والمصائب، أو على إذاية الكفار له بعد أن دعاهم للتوحيد، أو على العبادة عموما.

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «وفي التعبير عن الله بوصف ﴿ربك﴾ إيماء إلى أن هذا الصبر برٌّ بالمولى وطاعة له.

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته وهي من جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته».[12]

ثم انتقل السياق الكريم إلى التحذير والإنذار مما هو آت لا محالة، فقال:

---

[12] التحرير والتنوير (29/ 300)

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ المعنى: فإذا نُفخ في ﴿الناقور﴾ وهو الصور، وهو كهيئة القرن، وفي الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا».

ونظير هذه الآية في القرآن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: 87]. وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾[القمر: 6].

يقول سبحانه: ﴿فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير﴾ أي يوم شديد، ﴿على الكافرين غير يسير﴾ أي غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ [القمر: 8]. وقال جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 25، 26]. فدلت هذه الآيات بمفهوم المخالفة، على أن يوم القيامة سيكون يسيرا على المؤمنين، وقد ورد ذلك في الحديث: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر»[13]. فاللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مؤمنين.

[13] صحيح الجامع الصغير وزيادته (2/ 1361)

النص القرآني

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرِيكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

القراءات

﴿تسعةَ عْشَر﴾: أبو جعفر.

﴿تسعة عَشر﴾: الباقون.

التفسير الإجمالي

قوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ أي اتركني وهذا الذي خلقته وحده لا مال له ولا ولد. ﴿وجعلت له مالا ممدودا﴾ كثيرا ﴿وبنين شهودا﴾ لا يغيبون، ﴿ومهَّدتُ

له تمهيدا﴾ أي: بسطت له من المال والولد، ثم يطمع أن أزيد، ﴿كلا إنه كان لآياتنا﴾ الدالة على صدق نبوتك معاندا عنها مجانبا لها، ﴿سأرهقه صعودا﴾ مشقة من العذاب، وعذابا لا راحة فيه.

ثم ذكر سبحانه سبب هذا العذاب الذي ينتظر هذا المعاند، وهذا جار على كل من عمل مثله، إذ العبرة فعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقال: ﴿إنه فكر﴾ فيما يقول في القرآن الذي سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وقدر﴾ في نفسه ذلك، ﴿فقتل﴾ لعن وعذب ﴿كيف قدر﴾ تروَّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال، ﴿وقدر﴾ أي: تروَّى مرة أخرى، ﴿فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾ دعاء عليه.

﴿ثم نظر﴾ أعاد النظرة والتروي، وفيما يقدح به فيه ﴿ثم عبس﴾ قبض وجهه وكلحه ضيقا بما يقول ﴿وبسر﴾ زاد في القبض والكلوح. ﴿ثم أدبر﴾ عن الإيمان ﴿واستكبر﴾ عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿فقال﴾ فيما جاء به ﴿إن﴾ ما ﴿هذا إلا سحر يؤثر﴾ يُنقل عن السحرة. ﴿إن﴾ ما ﴿هذا إلا قول البشر﴾ وليس بكلام الله تعالى.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش. لعنه الله. وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي، عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبون قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه

بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالا وولدا. فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ إلى قوله: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فقتل كيف قدر﴾ الآية، ﴿ثم عبس وبسر﴾ قبض ما بين عينيه وكلح.

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من ذلك. والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. وقال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا

سحر يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدا حتى بلغ: ﴿تسعة عشر﴾».[14]

قال تعالى مهددا له: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾

والمعنى: سأدخله سقر، أي: جهنم، ﴿وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ﴾ تعظيم لها وتهويل ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ مبالغة في وصف عذابها، أي لا تدع غاية من العذاب إلا أذاقته إياها، أو لا تبقي شيئا ألقي فيها إلا أهلكته، وإذا أهلك لم تذره هالكا بل يعود للعذاب مرة أخرى ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ مغيّرة حرّاقة لظاهر الجلد. يقال: لوّحه السفر إذا غيره، والبشر جمع بشرة وهي الجلدة، فالمعنى أنها تحرق الجلود وتسودها. ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي: الحراس على سقر هم من مقدمي الزبانية، عظيم خَلْقهم، غليظ خُلُقهم.

النص القرآني

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا

[14] تفسير ابن كثير ت سلامة (8/ 267)

مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١

التفسير الإجمالي

المعنى: ﴿وما جعلنا﴾ عدد الملائكة ـ تسعة عشر ـ إلا بلاء للذين كفروا، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وليقول الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو شك: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾؟ استبعاد لأن يكون هذا من عند الله. ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ له الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ وذلك من كثرتهم. وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ـ في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة ـ: «فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

وروى الإمام أحمد ـ وغيره ، عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع إصبع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد.

وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن حكيم ابن حزام قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسمع

أطيط السماء وما تلام أن تئط، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد».

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها».

قوله جل وعلا: ﴿وما هي﴾ أي النار ﴿إلا ذكرى للبشر﴾ إنذارا لهم.

ثم وصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة، ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك في معرض الإيقاظ والتحذير. فقال:

النص القرآني

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٢﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٣﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٥﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٦﴾﴾

القراءات

﴿إذ أدبر﴾: نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف.

﴿إذا دَبر﴾: الباقون.

التفسير الإجمالي

﴿كَلَّا﴾ رد على الكافرين وأنواع الطاغين على الحق، ثم أقسم بالقمر، تخصيص تشريف وتنبيه على النظر في عجائبه، وقدرة الله تعالى في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل، وكذلك هو القسم ب ﴿اللَّيْلِ﴾ وب ﴿الصُّبْحِ﴾، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إلى الله تعالى مالك الكل وقوام الوجود ونور السماء والأرض، لا إله إلا هو العزيز القهار[16]، ﴿والليل إذ أدبر﴾، أي ولَّى. والصبح إذا أضاء وأقبل، إنّ نار جهنم لإحدى الكبر، يعني لمن الأمور العظام. ﴿نذيرا للبشر﴾ كافة. ﴿لمن مشاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾، وفي هذا وعيد وتهديد، كما فيه رد على الجبرية والقدرية.

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ محبوسة، قد حبستها أعماله السيئة ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ أهل السعادة فإنهم فكوا رقابهم بأعمالهم الصالحة، كما فكّ الراهن رهنه بأداء الحق. وهذه الآية مخصصة للتي في الطور: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: من الآية: 21].

---

[16] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (5/ 397)

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضا عن حال المجرمين الذين في النار يقولون: ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟﴾ أي ما أدخلكم النار؟ وهذا خطاب للمجرمين يحتمل أن خاطبهم به المسلمون أو الملائكة، فأجابوهم بقولهم: ﴿لم نك من المصلين..﴾ وما بعده. أي هذا الذي أوجب دخولنا النار. وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيما له، لأنه أعظم جرائمهم. والخوض: هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه. ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ هو الموت عند المفسرين، لقوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾. وقال ابن عطية: إنما اليقين الذي أرادوا، ما كانوا يكذبون في الدنيا، فيتيقنونه بعد الموت.

النص القرآني

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾

القراءات

﴿مستنفرَة﴾: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر.

﴿مستنفِرة﴾: الباقون.

التفسير الإجمالي

﴿فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ يوم القيامة، والسبب في ذلك أنهم ماتوا وهم كفار، وقد أجمع العلماء أنه لا يشفع أحد في الكفار، وجمع ﴿الشافعين﴾ دليل على كثرتهم كما ورد في الآثار: «تشفع الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء والصالحين..». الحديث.

وفي ظل هذا المشهد المخزي، والاعتراف المهين، يتساءل مستنكرا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير، ويرسم لهم مشهدا ساخرا يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيواني الشموس :﴿فما لهم عن التذكرة﴾ أي: عن هذا القرآن ﴿معرضين﴾ مستكبرين ومعاندين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 68]. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ المستنفرة: بفتح الفاء التي استنفرها الفزع، وبالكسر بمعنى النافرة. شبه الكفار بالحمر النافرة في جهلهم ونفورهم عن الإسلام. ويعني بالحُمُر: الوحش. ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي فرّت من عصبة قناص من الرماة، أو من الأسد. وفي هذا المثل لطائف ونكت، قال ابن القيم رحمه الله: «شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد والرماة ففرت منه، وهذا من بديع التمثيل، فإن القوم من جهلهم بما بعث الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم كالحمر، فهي لا تعقل شيئا فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها.

وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة، فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد،

فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى: أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته».[18]

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُم أَنْ يُوتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ ضرب وانتقال، والمعنى: ليس إعراضهم عن ذكر الله وتوحيده والإيمان به عن دليل أو حجة، وإنما هو التكبر والعناد والحسد للنبي صلى الله عليه وسلم، وطمع كل واحد منهم أن ينزل عليه كتاب من عند الله، ومعنى منشرة: منشورة غير مطوية، أي طرية كما كتبت لم تطو بعد، وذلك أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: لا نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء، فيه من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر باتباعك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: 93].

النص القرآني

﴿كَلَّآ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾.

القراءات

﴿وما تذكرون﴾: نافع.

---

[18] الأمثال في القرآن (ص: 26)

﴿ومايذكرون﴾: الباقون.

التفسير الإجمالي

﴿كَلَّا﴾ ردع عما أرادوه: ﴿بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فعدم تصديقهم للآخرة جعلهم لا يخافونها فأفسدهم. وهذه هي العلة والسبب في إعراضهم، وفيه دليل على أن الخوف من الآخرة والنار والحساب والصراط وغيرها من الغيبيات من أقوى العلل على الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

﴿كَلَّا﴾ تأكيد للردع الأول أو ردع عن عدم خوفهم الآخرة. ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير لما تقدم من الكلام أو للقرآن بجملته. ﴿فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ فاعل شاء ضمير يعود على من، وفي ذلك حض وترغيب. ثم قيد سبحانه فعل العبد بمشيئته فقال: ﴿وما تذكرون إلا أن يشاء الله هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو أهل لأن يتّقى لشدة عقابه، وهو أهل لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته وفضله.

مباحث في العقيدة

تكبير الربّ جل وعلا: لقوله تعالى: ﴿وربَّك فكبر﴾ .. ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: التكبير هو التعظيم .. ومعناه: ذكر الله بأعظم صفاته بالقلب، والثناء عليه باللسان، بأقصى غايات المدح والبيان، والخضوع له بغاية العبادة كالسجود له ذلة وخضوعا.

المسألة الثانية: هذا القول . وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة . فإنه مراد به التكبير والتقديس، والتنزيه بخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليا غيره، ولا تعبد ولا ترى لغيره فعلا إلا له، ولا نعمة إلا منه؛ لأنه لم تكن صلاة عند نزولها، وإنما كان ابتداء التوحيد.[19]

تارك الصلاة يعتبر من المجرمين: لقوله تعالى: ﴿**يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين..**﴾ .. الآية. فيه دليل على أن تارك الصلاة الذي **لم يسجد لله في دهره قط**، كافر. إذ لا يعقل أن يكون عاقلا بالغا حرا، مقيما في بلد يسمع فيه الأذان خمس مرات في اليوم، ويظل تاركا لها إلى أن يموت. **وإنما الخلاف فيمن يصلي ويترك ويتهاون.**

روى الترمذي في سننه: عن عبد الله بن شقيق العقيلي، قال: «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة».

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة. منها هذه الآية، وقبلها في "القلم": ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: 43]. وقد ذكرنا هناك قول ابن تيمية رحمه الله. ومنها قوله تعالى:﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]. وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 48، 49]. وقوله تعالى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ فلما كان الإسلام تصديق الخبر والانقياد للأمر، جعل سبحانه له ضدين: عدم التصديق وعدم

[19] أحكام القرآن (4/ 339)

الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب والصلاة بالتولي فقال: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ فكما أن المكذب كافر، فالمتولي عن الصلاة كافر، وكما يزول الإسلام بالتكذيب يزول بالتولي عن الصلاة. قال سعيد عن قتادة ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى﴾ لا صدق بكتاب الله ولا صلى لله، ولكن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته.[20] وقوله تعالى:﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فعلق إخوتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة المؤمنين لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وأما الأحاديث الصحيحة فكثيرة، نكتفي بحديثين: منها قوله صلى الله عليه وسلم: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» رواه مسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر". رواه أحمد.

وموضوع تارك الصلاة مستفيض في كتب العقيدة والفقه.

الإيمان يزيد وينقص: لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: 31] يستفاد من هذه الآية: أن الإيمان يزيد وينقص، وقد بوب على ذلك البخاري بابين: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس». و: باب زيادة الإيمان ونقصانه. ثم استدل على الباب الأول بقوله: وهو قول وفعل، ويزيد وينقص، قال الله تعالى ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ [الفتح: 4] ﴿وزدناهم هدى﴾ [الكهف:

[20] الصلاة وأحكام تاركها (ص: 48)

13] ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ [مريم: 76] ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: 17] وقوله: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾ [المدثر: 31] وقوله: ﴿أيكم زادته هذه إيمانا فأما [ص:11] الذين آمنوا فزادتهم إيمانا﴾ [التوبة: 124] وقوله جل ذكره: ﴿فاخشوهم فزادهم إيمانا﴾ [آل عمران: 173] وقوله تعالى: ﴿وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾ [الأحزاب: 22] والحب في الله والبغض في الله من الإيمان « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: «إن للإيمان فرائض، وشرائع، وحدودا، وسننا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص» وقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: «ولكن ليطمئن قلبي» وقال معاذ بن جبل: «اجلس بنا نؤمن ساعة» وقال ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله» وقال ابن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر» وقال مجاهد: «شرع لكم من الدين أوصيناك يا محمد وإياه دينا واحدا» وقال ابن عباس: «شرعة ومنهاجا» سبيلا وسنة باب دعاؤكم إيمانكم لقوله عز وجل: ﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ [الفرقان: 77] ومعنى الدعاء في اللغة الإيمان.[21]

واستدل على الباب الثاني بقوله: وقول الله تعالى: ﴿وزدناهم هدى﴾ [الكهف: 13] ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾ [المدثر: 31] وقال: «اليوم أكملت لكم دينكم» فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص.[22]

---

[21] صحيح البخاري (1/ 10)

[22] صحيح البخاري (1/ 17)

ولقد ضلت طائفة المرجئة في مسمى الإيمان وحقيقته فجرّت الويلات على الأمة الإسلامية، ولا تزال ليومنا هذا. حيث عرّفوا الإيمان بأنه مجرد معرفة الرب بالقلب، وأنه لو فعل الأعمال الكفرية مع ذلك فلا تؤثر في إيمانه!! فلو سبَّ الله أو سبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أو سبَّ دين الإسلام وقتل الأنبياء والمصلحين وهدم المساجد وفعل جميع المنكرات فلا يكفر ما دام يعرف ربه بقلبه!! وهذا هو أفسد قول قيل في تعريف الإيمان، وهو قول أبي الحسين الصالحي من القدرية. ويليه في الفساد قول الكرّامية القائلين: بأن الإيمان هو النطق باللسان فقط، فمن شهد أن لا إله إلا الله بلسانه فإنه يكون مؤمناً ولو كان مكذباً بقلبه، ويسمونه مؤمناً كامل الإيمان، وإن كان مكذباً بقلبه فهو مخلد في النار فيلزمهم على هذا أن المؤمن الكامل الإيمان مخلدٌ في النار وهذا من أعظم الفساد وهو يلي قول الجهم في الفساد. الطائفة الثانية: مرجئة الفقهاء، وهم أهل الكوفة كأبي حنيفة -رحمه الله- وأصحابه، وأول من قال بأن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان هو حماد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة، وأبو حنيفة له روايتان في حد الإيمان: الأولى: أنه تصديق القلب وقول اللسان، وهذه الرواية عليها أكثر أصحابه. والثانية: أن الإيمان هو تصديق القلب فقط، وأما قول اللسان فهو ركن زائد خارج عن مسمى الإيمان، وعلى هذه الرواية يوافق قول الماتريدية أن الإيمان هو تصديق القلب فقط.

ثبوت الشفاعة يوم القيامة لأهل التوحيد: لقوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين..﴾ فيه دليل على ثبوت الشفاعة يوم القيامة، ويشترط لها عند الله شرطان:

الشرط الأول: أن تكون بإذن الله، فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذن، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع، أما من قبل أن يأذن فلا أحد يتقدم إلى الله عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: 255] ، وليس كالمخلوق الذي يتقدم الناس للشفاعة عنده وإن لم يأذن، فالله جل وعلا لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد وأهل الإيمان، ممن يرضى الله عنهم قولهم وعملهم، ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: 28] ، أي: رضي الله قوله وعمله، وجاء الشرطان في قوله تعالى: ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم: 26] . أن يأذن الله هذا الشرط الأول، ويرضى هذا الشرط الثاني.

أما الكافر فإنه لا تنفعه الشفاعة: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر: 48] ، ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: 18] فالشفاعة في القرآن شفاعتان؛ شفاعة منفية وهي التي انتفت شروطها، وشفاعة مثبتة وهي التي تحققت شروطها.

فالكافر لا تنفعه الشفاعة؛ لو شفع فيه أهل السماوات وأهل الأرض ما قبل الله فيه شفاعتهم؛ لأنه مشرك كافر بالله عز وجل، لا يرضى الله قوله ولا عمله، إلا ما جاء في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب، فهي شفاعة خاصة، وأيضاً ليست شفاعة من أجل خروجه من النار، إنما هي شفاعة

من أجل تخفيف العذاب عن هذا الرجل؛ لما حصل منه من مؤازرة النبي صلى الله عليه وسلم وحمايته له -عليه الصلاة والسلام- والمدافعة عنه، فالنبي صلى الله عليه وسلم يشفع في تخفيف العذاب عنه فقط.

هذه هي الشفاعة الثابتة بشروطها.[24]

إثبات المشيئة للخلق: لقوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾، وقوله: ﴿فمن شاء ذكره وما تذكرون إلا أن يشاء الله.﴾.. فيها: إثبات المشيئة والإرادة للعبد، ولكن مشيئته مقيدة بمشيئة وإرادة الله تعالى. وفيها وعيد وتهديد، كما وفيها ردٌّ على بدعة الجبرية والقدرية.

ومُلَخَّص المشيئة، أن المؤمن عليه أن يعتقد: أن مشيئة الله تعالى نافذة، وقدرته شاملة.

فيؤمن بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وأنه ما في السماوات والأرض، من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد. وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات. فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولا رب سواه. وقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته. وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين. ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء. ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد. والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم.

---

[24] التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية (ص: 97 ـ 98)

والعبد هو: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم. وللعباد قدرة على أعمالهم، وإرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

كما قال تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم • وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: 28 - 29] .

وهذه الدرجة من القدر، يكذب بها عامة «القدرية»، الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم: «مجوس هذه الأمة» .

ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى يسلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه؛ حكمها ومصالحها. (انتهى من العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام).

مباحث في الفقه

أولا: قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.. استدل به الشافعي على وجوب غسل النجاسة وإزالتها من الثوب وفسره طاوس بالتقصير والتشمير، فاستدل به على تحريم جر الثوب خيلاء، وقيل هو كناية عن إصلاح العمل، قاله ابن عباس وغيره.[25]

ثانيا: قوله تعالى: ﴿يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآية. استدل بها العلماء على أن الكفار مكلفون بالفروع. (انتهى).[26]

قال جلال الدين المحلي: «والكفار مخاطبون بفروع الشرائع وبما لا تصح إلا به وهو الإسلام لقوله تعالى حكاية عن الكفار:﴿**ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾ وفائدة خطابهم بها عقابهم عليها، إذ لا تصح منهم حال

---

[25] الإكليل في استنباط التنزيل (ص: 277)

[26] أحكام القرآن (4/ 340)

الكفر لتوقفها على النية المتوقفة على الإسلام، ولا يؤاخذون بها بعد الإسلام ترغيباً فيه».[27]

مباحث في تزكية النفوس

منزلة الخوف من الله تعالى:

لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾.. قال الإمام النووي رحمه الله: «وروينا عن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفى التابعي الجليل رضي الله عنه أمهم في صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، خر ميتا. قال بهز: وكنت فيمن حمله»[28].

منزلة الاجتهاد في الطاعة والمسابقة:

لقوله تعالى: ﴿لمن مشاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾. قال ابن القيم رحمه الله: فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء ﴿إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ [المدثر: 35 – 37] ولم يذكر واقفا،

---

[27] شرح الورقات في أصول الفقه – المحلي (ص: 113 . 114)

[28] التبيان (ص: 83)

إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة».[29]

منزلة التقوى:

لقوله تعالى: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ الآية.

قال طلق بن حبيب: «التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله».

وقال بعض السلف: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس». قاله ابن القيم في المدارج.

الدروس التربوية والدعوية المستفادة من السورة

الدرس الأول: استهلت السورة ـ بما استهلت به أختها «المزمل ـ بتكليف النبي صلّى الله عليه وسلّم بالقيام، فالأولى: كانت لقيام الليل. وهذه للقيام بإنذار الناس، والتخلق بمكارم الأخلاق: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.. ﴾.. فالداعية إلى الله هو المطالب الأول بتنفيذ هذا الأمر على وجه الوجوب، والفرض الكفائي، لاستمرار نشر الدين وتعبيد الناس لرب العالمين، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وذلك مع تزوده كل ليلة ـ أو أغلب الليالي ـ بصلاة الليل وترتيل القرآن مع فهمه وتدبره. كما مرّ في «المزمل». فهذه المرحلة ـ مرحلة الدعوة ـ تأتي بعد الجمع بين ﴿اقرأ﴾ و﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ و﴿قم الليل إلا قليلا ..﴾. وهذا هو الترتيب

[29] مدارج السالكين (1/ 278)

التربوي الذي ربى به الحق سبحانه وتعالى نبيه ومن معه، وما سوى ذلك فمصيره إلى بوار.

الدرس الثاني: يحتاج نجاح الدعوة إلى الله إلى عناصر بشرية إيجابية، وحماية إلهية. أما العناصر الإيجابية فهي الوصايا الست التي وردت في صدر السورة، من: تعظيم الرب بالتكبير، وتطهير القلب من الشرك والوثنية والذنوب والمعاصي، في مقابل الاتصاف بأعلى الصفات الخلقية، والاستعانة بالجود والصبر بأنواعه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

الدرس الثالث: مما يلفت النظر في هذه السور الأربعة: «العلق» «القلم» «المزمل» «المدثر»، أنها أطلعتنا على حال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه حين نزل عليه الوحي، وحين ذاع الخبر في مكة، فكان الوحي يتنزّل عليه مثبّتا له، ومبيّنا له كيفية التعامل مع صناديد الكفر والعناد، الذين أطغاهم المال والبنون والجاه، مثل أبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأبي لهب .. فكان من تلك التوجيهات الربانية:

. الإعراض عن المستهزئين والمعاندين، وعدم الاكتراث بتهديداتهم.

. الصبر والاحتساب على أذاهم القولي والفعلي.

. المحافظة على الصلاة، مع كثرة السجود والتضرع إلى الله تعالى.

. اغتنام سكون الليل وهدوئه للقيام، وترتيل القرآن لتدبره وفهمه، والتبتل إلى رب العالمين.

الدرس الرابع: السرية في الدعوة إذا ما تشابه حال المسلمين بالحال الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لأن بعد نزول آيات المدثر، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، وإلى الإسلام سرًّا، وكان طبيعيًا أن يبدأ بأهل بيته، وأصحابه، وأقرب الناس إليه. فأول من صدقه وآمن به زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فكانت أول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم، وكانت كذلك أول من تعلم الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبيتها هو أول مكان تُلي فيه أول وحي نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم بعد غار حراء. وبعدها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويعتبر أول من آمن من الصبيان، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين، وزيد بن حارثة الكلبي رضي الله عنه حِبّ النبي صلى الله عليه وسلم ومولاه، ومُتَبنَّاه، الذي آثر رسولَ الله على والده وأهله.

كذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي صلى الله عليه وسلم، كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية .. وبذلك أصبح بيت النبي صلى الله عليه وسلم أول أسرة مؤمنة بالله تعالى منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظمى في تاريخ الدعوة الإسلامية، لما حباه الله به من مزايا وخصه بشرف الأسبقية في الإيمان وتلاوة القرآن وإقام الصلاة فهو:

. أول مكان تُلي فيه وحي السماء بعد غار حراء.

. وهو أول بيت ضم المؤمنة الأولى سابقة السبق إلى الإسلام.

. وهو أول بيت أقيمت فيه الصلاة.

. وهو أول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثلاثة السابقون إلى الإسلام، خديجة وعلي وزيد بن حارثة.

وهو أول بيت تعهد بالنصرة، ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده . كبارا أو صغارا . عن مساندة الدعوة.

وهكذا كان للبيت النبوي مكانته الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا والأنموذج الذي نسير على هديه في المعاشرة، ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا ورسولاً.[30]

الدرس الخامس: ذكرنا في قصة الوليد بن المغيرة، أنه قال ما قال في القرآن، وذلك حين حضر موسم الحج، فاجتمع نفر من صناديد الكفر، وقالوا: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس . يعنون الوليد بن المغيرة . فقل وأقم لنا رأيًا نقول به. فقال ما قال.

فيتضح من هذه القصة أن الحرب النفسية المضادة للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن توجه اعتباطًا، وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث، كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض، وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون

[30] السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: 86 . 88)

حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوة منها، ومع اختيارهم للزمان المناسب، فقد اختاروا أيضا مكانًا مناسبًا حتى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكة.[31]

وهكذا الحال في عصرنا وفي كل وقت وحين، نرى دعاة الضلال ومحاربة دين الله تعالى، يخططون، ويغتنمون المناسبات التي يحتشد فيها أكثر عدد من العوام، لتشويه الدين، والافتراء عليه وعلى دعاته.

فعلى الدعاة إلى الحق، أن يستغلوا ـ هم كذلك ـ المناسبات التي يجتمع فيها أكب عدد من الناس، فيبلغوهم دعوة الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، ويختاروا لكل مناسبة موضوعا محكما يليق بها، فلكل مقام مقال، ودعوة العام ليست هي دعوة الخاصة.

الدرس السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً..﴾ [المدثر: 31] فيه بيان أن الواجب على المؤمن المبادرة بالتصديق والانقياد، ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض، بناء على أن الخبر من الله تعالى. وهو أعلم بما رواه.

فكل ما صح عن الشارع الحكيم من كتاب أو سنة وجب التسليم والانقياد إليه، علمنا الحكمة أو لم نعلم ؛ لأن علمنا قاصر، وفهمنا محدود، والعليم الحكيم الرءوف الرحيم – سبحانه – لا يكلف عباده إلا بما فيه الحكمة.

ومجمل القول أن الأحكام بالنسبة لحكمتها قد تكون محصورة في أقسام ثلاثة:

---

[31] السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: 134)

القسم الأول: حُكم تظهر حكمته بنص، كما في وجوب الصلاة، جاء: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [29 \ 45] ، وهذه حكمة جليلة، والزكاة جاء عنها أنها: ﴿تطهرهم وتزكيهم﴾ [9 \ 103] .

وفي الصوم جاء فيه: ﴿لعلكم تتقون﴾ [2 \ 183] .

وفي الحج جاء فيه: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [22 \ 28] . فمع أنها عبادات لله فقد ظهرت حكمتها جلية.

وفي الممنوعات كما قالوا في الضروريات الست، حفظ الدين، والعقل، والدم، والعرض، والنسب، والمال لقيام الحياة ووفرة الأمن، وصيانة المجتمع، وجعلت فيها حدود لحفظها وغير ذلك.

وقسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور، ولكنه لم يخل من حكمة: كالطواف، والسعي، والركوع، والسجود، والوضوء، والتيمم، والغسل، ونحو ذلك.

وقسم ابتلاء وامتحان أولا، ولحكمة ثانيا: كتحويل القبلة، كما قال تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ [2 \ 143] .

وفي التحول عنها حكمة كما في قوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ [2 \ 150] .

والمسلم في كلتا الحالتين ظهرت له الحكمة أو لم تظهر وجب عليه الامتثال والانقياد، كما قال عمر عند استلامه للحجر: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقبلك ما قبلتك.

فقبله امتثالا واقتداء بصرف النظر عن ما جاء من: أن عليا – رضي الله عنه – قال له: بلى يا أمير المؤمنين، إنه يضر وينفع، فيأتي يوم القيامة وله لسان

وعينان يشهد لمن قبله ؛ لأن عمر أقبل عليه ليقبله قبل أن يخبره علي – رضي الله عنه –.

وقد تنكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها كما في قصة الخضر مع موسى – عليهما السلام –، إذ خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، وكلها أعمال لم يعلم لها موسى – عليه السلام – حكمة، فلما أبداها له الخضر علم مدى حكمتها.

وهكذا نحن اليوم وفي كل يوم، وقد بين تعالى هذا الموقف بقوله: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ [3 \ 7] .

وقد جاء في نهاية الآية الكريمة ما يلزم البشر بالعجز ويدفعهم إلى التسليم، في قوله: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾. فكذلك بقية الأمور من الله تعالى هو أعلم بها. والعلم عند الله تعالى. (انتهى من الأضواء).[32]

الدرس السابع: سورة المدثر من مطلعها إلى آخرها إنذار وتذكير بالآخرة، وتخويف من نار جهنم مما نفهم منه: أن الدعوة في زمن الغربة . وهو الزمن المشابه لزمن النبي صلى الله عليه وسلم . يجب أن يحرص فيها الدعاة على إنذار الناس وتذكيرهم بالآخرة وأهوالها، والحرص على تثبيت اليقين الجازم بالغيبيات المنصوص عليها في القرآن، منها: عظمة الخالق وإحاطته بكل شيء، والإيمان بالملائكة، والبعث، والحساب، والنار، والجنة .. وكل هذه الغيبيات مصدرها الوحيد: القرآن. فواجب الدعاة إلى الله أن يربطوا الناس بقراءة القرآن، وتفسيره، ودراسته، والتعلق به، والاستئناس به، والاحتكام به وإليه. وأن لا يشغلوهم بغيره من المقالات

[32] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (8/ 365 366)

والقصص والخلافات الفقهية، والجدالات العقمية. اللهم أن تكون أحاديث صحيحة في أمور الغيب، فلا بأس بالاستئناس بها.

الدرس الثامن: سبق وأن ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيدا..**﴾ الآيات. أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وقد علمنا أن مثل هذه الآيات التي تنزل في شخص ما بعينه، أو جماعة ما، أن لها حكم العموم، لا الخصوص. وهي القاعدة الأصولية التي يطلق عليها: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وقد مرّ معنا مثلها في سورة «العلق» و«القلم» حيث نجد كلا من أبي جهل والوليد بن المغيرة يمثلان العدو الأكبر والأول لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا النموذج من أعداء الدين سيوجدون في كل وقت وحين، وسيتصدون لكل من رفع راية التوحيد، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31]. وهكذا نستفيد من الآيات أن كل من طعن في القرآن، أو كذّبه، أو سخر مما فيه، فوعيده سقر.

الدرس التاسع: قوله تعالى: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدَّثر: 48]. ذكرنا من قبل شروط الشفاعة وضوابطها، مما ينبغي التذكير بها في الوعظ والإرشاد، وتحذير الناس من التعلق بالأضرحة والأموات والجن وما شابه ذلك. فإن أغلب الدول الإسلامية ينتشر فيها الجهل بحقيقة الشفاعة. فمن أراد شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فليطلبها من ربه، وليكن موحدا متبعا لكتاب الله وسنة

رسوله صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «لقد – ظننت يا أبا هريرة– أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه، أو نفسه». أخرجه البخاري.

وعنه أيضا . في حديث الشفاعة . وفيه أن بعض الناس يقول: « .. ائتوا النبي – صلى الله عليه وسلم –، فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه». متفق عليه.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة». أخرجه مسلم.

الدرس العاشر: ضرورة التوازن بين العبادة والدعوة، حيث أمر سبحانه نبيه بقيام الليل، وبعدها مباشرة بالقيام للدعوة. فقال: ﴿**يا أيها المزمل قم الليل** ..﴾ ثم فتر الوحي بضعة أشهر، وبعدها أُمر صلى الله عليه وسلم بالدعوة: ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر**﴾ .. وكل نقص أو تفريط في هذا الترتيب التربوي، والمنهج الرباني، فسيضر بالدعوة، ولن تؤتي ثمارها.

وهذا الترتيب التربوي، مستمد حسب ترتيب النزول:

المطلوب الأول: العلم بالخالق والإنسان ﴿اقرأ باسم ربك ﴾ .. ﴿خلق الإنسان..﴾..

المطلوب الثاني: المزيد من العلم مع التخلق به ﴿ن والقلم وما يسطرون..﴾ .. ﴿وإنك لعلى خلق عظيم..﴾.

المطلوب الثالث: قيام الليل .. ترتيل القرآن مع التدبر والفهم .. كثرة ذكر الله .. ﴿يا أيها المزمل قم الليل..﴾

المطلوب الرابع: بعد الإتيان بالمطالب الثلاثة الأولى، حينها تأتي مرحلة الدعوة: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر.﴾.. مع التخلّق بتعظيم الله وإجلاله، وتطهير النفس، ظاهرا وباطنا، ومفارقة ما عليه أهل الجهل، وإخلاص العمل، والصبر على فعل الطاعات، وترك المعاصي، وأقدار الله تعالى.

انتهى بتوفيق الله ومنّه، من تفسير سورة المدثر